مـــرايا مغبّشـــة

ثلاث روايات انكليزية وامريكية عن العالم العربي

ان موضوع « الاستعمار الثقافي » اوسع من ان يدرس ككل من جميع نواحيه . لكن من الثابت ان احدى نتائج سيطرة الغرب الاقتصادية والسياسية على جزء كبير من آسيا وافريقيا هي ان هذه المناطق التي كانت محكومة اصبحت موضوعاً للدرس عند المثقف الغربي : فاكتشف اراضيها المجهولة ، ووضع لها الخرائط ، ودرس التاريخ الطبيعي لاجناسها البشرية ، وطبقات ارضها ، وسجلها ، وصورها ، وشرحها ،ووضع عنها القصص . كان ذلك ،من ناحية ما ، نهباً اخطر من اي استغلال للمواد الاولية، ذلك لأن عملية سبر المرء لغور لذاته ولغور كونه، عملية لا يمكن ان تعاد من جديد . ثم ان الصورة التي يكونها الاجنبي ما ان تتكون وتتحدد حتى تصبح ذات آثار ثابتة موطدة .

وقد يكون الروائي ، كمتحدث عن المجتمعات الاجنبية ، هو ابعد الناس اثراً واقله موضعاً للثقة. لأن الانثربولوجي او عالم الاجناس البشرية (ويبدو لسوء الحظ ، ان علماء هـذا الحقل قليلون جداً في الشرق الاوسط) يتقيد بقوانـــين الحقيقة العلمية وبنظامية عمله . لكن الروائي يجول في ارض ...لم ، غـــير محددة بوضوح ، بين الواقع وبـــين ...لية ؛ الشعوب والمجتمعات هي مواده الاولية ، ...نفســه يدعي لنفسه حق النظر فيهـا بطريقته ... . ولا جدوى من اتهامـه بعدم الدقة ، لأن ...م بالنسبة اليه هو ان يكون خلاقاً . ومع هـذا ...ن الذين يقرأون القصص اكثر بكثير من الذين ...رأون تاريخ علم الاجناس تكون كلمة الروائي صاحبة الوزن في النهاية . والكتّاب (خاصة ...نكلو سكسونيون منهم) رحـــالون بالفطرة ، ...كثير من افضل الروايات باللغة الانكليزية في هذا ...نـــا اتخـذت اطاراً لهـــا المستعمرات او ...رات السابقة . انمـــا هـل يرى الافريقيون ... انفسهم من خلال هـذه المرايا ؟

... الروايات التي تكتب باللغة الانكليزية عن الشرق الاوسط ، تتسع قليلاً من عـام لعام . وفي كل سنة يتساءل المرء لماذا لم يكتب بعد احد ما رواية عن العالم العربي من وزن رواية «الطريق الى الهند » . هـل كان بامكان ا. م. فورستر ان يفعل ذلك لو انه عاش في مصر بطول المدة التي عاشها في الهند؟ربما ؛ اذ ليس من الصعب نقل روايتيه اللتين تجري احداثهما في ايطاليا الى لبنان . لكن ا. م. فورستر هو واحد من اولئك النـاس القلائل جـداً الذين يجدون الحواجز القومية (وكانت آنـــذاك اضخم منها اليوم) شفافة تقريباً ؛ فقد رأى هـذه الحواجز ورأى من خلالهـــا ايضاً في آن واحد . وبقدرة خارقة فهم القلب البشري في اساسياته مثلما فهمه في اقنعته التي يتنكر بها محلياً ووقتياً . لكن الشخصيات العربية في معظم القصص الانكليزية عـن الشرق الاوسط ليسوا على مستوى واحـد من الواقـع مثـل الاجانب . ورأيي ان هنـــاك كاتبين انكليزيين فقط نجحـا في تصوير وعرض شخصيات عربية بشكل مقنع ، من الداخل : وهما مرمدوك بكثل ودزموند ستيوارت.

هل العرب غامضون بنوع خـــاص بالنسبة الى الانكلوسكسونيين ؟ ام انهـم في الواقع لا يختلفون عنهم اختلافاً كافياً ؟ ان بـين الهند وانكلترا الآن اتصالاً فكرياً مزدهراً ثنائي الاتجـاه ، لا مثيل له بين انكلترا والعالم العربي . فلم يكتب بعض الانكليز كتباً عن الهند فحسب بل ايضاً كتب بعض الهنود كتباً جيـــدة عن انكلترا . بالطبـع ان فرض الانكليزية كلغة قومية في الهند عامـــل رئيسي في قيام وتيسير هذا الاتصال الحضاري . ولكن يظل من الغريب ان العرب الذين تقابلهم على صفحـــات الروايات الانكليزية عـن الشرق الاوسط هم نادراً ما يكونون من المتعلمين ، من الاطباء او المحامين او الاساتذة الذين يتكلمون الانكليزية او الفرنسية ، وانمـــا يكونون عادة خليطاً من السائقين وادلاء السياحة واشباههم من المختصين بالتعامل مع الاجانب،

ممن يقدمون لهم الفكرة عن الشرق الاوسط التي يعتقدون انهم يحبون ان يأخذوها . مرايا تعكس على صفحاتها مرايا اخرى تعكس على صفحاتها تنكرات واقنعة .

ربما كانت درجة الاختلاف والتشابه بين الهنود وبين الانكليز الدرجة المناسبة تماماً ، التي من شأنها ان تثير الفضول وتجعل التفاهم المتبادل ، بالتالي ، ممكناً . ان الهندوسية ، وما يخالطها من تصوف غامض ، اغرب كثيراً بالنسبة للعقل الغربي من الاسلام ، الذي بين اصوله وبين اصول المسيحية صلات قربى والذي كان التصوف فيه حركة محدودة ومنفصلة عن مجراه العام . والاسلام يمكن ادراكه والاحاطة بتعاليمه ، اما الهند فان ظواهر روحية غريبة تنمو فيها باطراد ، تبعث في الاجنبي الشعور بانه لن يتمكن قط من « الغوص الى اعماقها » . والهند اشبه بسيرك غني بالمشاهد الجانبية التي لا نهاية لها ،اما العالم العربي فانه ،على ما فيه من تنوع، ليس فيه من ينام على المسامير ، او يعلّم الحكمة في الطرقات ، ولا شعوذة او تمثيل ، والتنكرات فيه قليلة ،والدجالون محصورون في النطاق التجاري.

لا يستطيع المرء مثلا ان يتصور ان حادثة كهف اجانتا الواردة في رواية «الطريق الى الهند» يمكن ان تحدث في وسط عربي (لقد حاول ب. ه. نيوبي ان يفعل شيئاً من هذا القبيل في روايته « نزهة في صقارة » ، لكن المحاولة لم تنجح تماماً في الواقع . واثر الجو العربي العام في الانسان الغربي ليس قوياً ولا هزلياً كما هو اثر الجو الهندي العام . فللهند « جو » يغلف كل شيء ويبدله ، وكأنه صباغ . اما العالم العربي فلا يفرض نفسه الى الحد نفسه على شخصية الغريب ، وقلما يبدله بشكل اساسي ، ولا يثير فيه الاسئلة حول نفسه .

هل يوجد بين الانكليز والهنود شيء مشترك غير موجود بين الانكليز والعرب (باستثناء الاتصال السياسي الذي كان اطول واوثق) ؟ يخيل لي ان نظام الطبقات الهندوسي ، مع انه في طريق الزوال، لهو مما يمكن للعقل الانكليزي ان يستوعبه بسهولة. ان اساس النظام الطبقي في الهند ديني بينما هو في انكلترا رومانسي . اما العالم العربي فلا طبقات فيه ، لا فروقات تتخذ شكل القوالب الجامدة ، وانما فيه تأرجح غريب – بين الايمان بالمساواة وحب السلطة ، بين الثورة والاستسلام ، بين الرأفة والاستغلال ، بين الاخاء وكره الجار ، وذلك مما يصعب جداً تصنيفه والبحث فيه . هل هذا العربي او ذاك مغرور او غير مغرور ؟ انه عادة مغرور وغير مغرور في آن واحد ، ثائر ومستبد : وهو وضع يجده الروائي ممتعاً لكنه يعجز عن معالجته بسهولة معالجة تقليدية . ان من السهل ان نرى ان العرب لا يشبهون الانكليز . لكن ما هو الفرق بينهم على وجه التدقيق ؟

فرق اساسي ، بالطبع ، هو ميل العرب ، وخاصة النخبة الثقافية منهم ، الى السياسة ، بينما اغلب النخبة المثقفة في انكلترا لا يعبأون بالسياسة او يقفمون ضدها . واسباب ذلك واضحة ، الا ان العرب يفهمونها بشكل عام اكثر مما يفهمها الشعب الانكليزي. ان المتحرر الليبرالي الانكليزي الذي يمثل عموم المتحررين في بلده معرض دائماً لاغرا تحويل مقته للعمل السياسي وللمعتقدات السياسية الى فضيلة . ولما كان معظم الكتّاب الانكليز هم ايضاً من المتحررين ، فان احجامهم عن تفحص ما هو خلف «التألق المسرحي» (مستعيرين كلما موريل سبارك) في عيني العربي هو على اقوى م يمكن ان يكون عليه . ونجد في «بوابة مندلبوم» مقطعاً له مغزاه يشد فيه البطلان (وكلاهما انكليزيان) على يدي واحدهما الآخر بزهو ، لانه اكتشفا ان كليهما « يكرهان العقائ والايديولوجيات » . اما في الكتّاب الامريكيين عموماً فنجد شعوراً اكثر طبيعية تجاه السياسة فادوارد شيهان ،مثلا ، يتناول في روايته « مملك الوهم » السياسة بالهزل ، ولكنه لا يتساءل اس التشكيك عن ضرورتها.

ان « سر » العالم العربي و « لغزه » هو الاساس نفساني وليس روحانيا . انه لا يقوم رغبة في اكتشاف الله ، او الهرب من الذات ،و على عدم امكان التنبؤ برد الفعل البشري ، الفاصل غير الواضح بين الامتثال وعدم الامتثال والتعقيدات هنا ليست عميقة وكيانية مثلما هي الهند ، بل هي سطحية وفي حركة مستمرة : بريق باهت على بحيرة مضطربة ، اكثر منها ر

شطرنج ذات ابعاد ثلاثة . هذا ولا شك ان نسبة معينة من الجمود مفيدة للروائي مثلما هي مفيدة للمصور الفوتوغرافي .

ولا يمكن للرواية ان تكون ولا ان تنجح قبل ان يكون هناك شيء من الاهتمام بالصفات الشخصية ،ولا يمكن للصفات الشخصية الفردية ان تتمايز في المجتمعات التي يغلب عليهاالشعور الجماعي. لقد ترك افول الطبقات في الهند في القرن العشرين فراغا اتاح للصفات الشخصية بان تنبثق،في حين ان البنيان القاعدي الشامل لا يزال يؤمّن مجموعة من القوالب التي قد تتناسب الصفات الشخصية معهاوقد لا تتناسب. اما في العالم العربي ،من الجهة الاخرى، فان المرء يجد شعورا قويا بالحرية الشخصية ، بدون وجود شعور بالهوية الشخصية . ومتطلبات العائلة والجماعة مسيطرة الى حد يكاد يمنع نمو الشخصية المعقدة . واكثر من ذلك : ثمة عجز عن تحسس الشخصية ، وعن القدرة على وصفها ، سواء في النطاق المادي او النفسي . حينما يسأل انسان ما عربيا : « صف لي فلانا » ، يكون الجواب عادة مبهما وعاديا وغير واف . فانه يبدو وكأن معظم العرب لا ينظرون فعلا الى بعضهم البعض – ... يروا بعضهم بعضا تحت قناع التبويبات العامة: «جذاب » ، « غير جذاب » ؛ « ذكي » ، « ... » ؛ « صديق » ، « عدو » .

... كانت متطلبات القرابة في العالم العربي (... الآباء والأبناء والاخوة والاقرباء الاقربون) ... بحيث تضطر نفسية الفرد الى اتخاذ ... دفاعي يقوم على التحسس بوجودها هي ... تقريبا لدرجة انه يمنعها عن امكان معرفة ... وربما علل هذا الامر سيادة الشعر على الادب ... ، وافتقار هذا الادب الى المسرح والرواية ... . فان لمعظم العرب تحسسا شديدا لذاتيتهم ... يستحيل عليهم بسببه ان يتخيلوا انفسهم ... الآخرين . وتميل علاقاتهم مع الآخرين الى ... اشكال متميزة حاسمة : الحماية ، الموالاة ، ... ، وما الى ذلك ؛ وتبقى المناطق المجهولة ... تقليدي وما هو حقيقي غير مكتشفة . ... هذا كله ان المجتمع العربي هو ، من الجهة ... ، شبكة من العلاقات المتجسدة في مؤسسات ؛وهو من الجهة الاخرى علاقات متقاربة بين شخصيات ليست متماثلة تماما ولا تدرك وحشتها لمجرد انها لا تترك لوحدها ابدا ، بالمعنى المادي المحسوس .

واذا كان المعنى العربي للشخصية مائعا اكثر مما هو ثابت ، فانه اقرب الى الحقيقة النفسية من المفهوم الغربي التقليدي. لكن الشخصية كانت دائما هي العمود الفقري للرواية الانكليزية، ومن الصعب وضع رواية تقليدية بدونها . وما يحتاج العرب الى خلقه هو نوع جديد من الرواية تنعكس فيه ذواتهم ومجتمعهم بشكل ارهف وادق مما تنعكس به في عين الغريب، حتى اكثر الغرباء قدرة على الملاحظة.

اعتقد انه من الحري بالملاحظة انه من بين الكتّاب الثلاثة الذين اراجع مؤلفاتهم في هذاالمقال، انما هو الكاتب الامريكي (ادوارد شيهان) الذي يتفهم العقلية العربية تفهما اكثر طبيعية من تفهم زميليه. انه ليس « خبيرا بشؤون الشرق الاوسط» (ولله الحمد) ،مع انه يبدو عليه انه التقط اكواما من المعلومات – عن الدين والبدو والعادات الدبلوماسية واساليب موظفي الحكومات . بل ان اكوام المعلومات هذه تزيد احيانا عن اللزوم.لكن اجمل ما فيه انه لا يحتاج لان يبذل جهدا كبيرا ليصور العرب ككائنات بشرية ، بشرية جدا ، ممتعة ، محببة . لكن انتمدح ادوارد شيهان لا يعني ان نحط من قدر دزموند ستيوارت ، وهو الكاتب الافضل جدا والاكثر خبرة ، الذي اسهم في شرح العرب للغرب الانكليزي اللسان اكثر مما فعل اي آخر (ربما باستثناء ارسكن تشلدرز).

« مملكة الوهم » (تشابمان وهول ، لندن ، ١٩٦٥) رواية اولى ، كتاب للشباب ، وهي ممتلئة بهضامة الشباب وبراعاته ، وبالشخصيات الغريبة الاطوار ، وبالمواقف الهزلية . انها اشبه بكتابات ايفلن وو الاولى ، بدون القسوة التي في هذه :(حينما يجد الدكتور بانتري ، « مدير دائرة التفاهم المتبادل » في السفارة الامريكية ، ان احد مرؤوسيه قرأ بالخطأ برقية سرية ووقعها بالاحرف الاولى من اسمه ، يرسل اليه المذكرة التالية : « لم يكن من المقصود ان ترى البرقية المرفقة .

الرجـــاء ان تشطب توقيعك وان توقـع على الشطب ») .

و « مملكة الوهم » طريفة جـــدا في تناولها للدبلوماسية الاميركية – وسيستمتع القراء العرب بمطالعة السخرية النقدية اللاذعـة ، المغلفة بستار رقيق ، من روبرت ميرفي وجـون فوستر ضلس (الذي كان يحلم بوضع « حزام عفة من القواعد ، يمنطق العالم » !) . والامريكيون « الطيبون » هم السفير ، شوني فتزغبون ، ومساعده الشاب كريستوفر غرندون . يحـــب كلاهما الخضراء (الدولة العربية الوهمية التي يشير العنوان لها) وينتهي كلاهما بالنفي عنهـا . وبطل القصة غـير المنازع هـو مصطفى بن مبروك ، وئيس وزراء الخضراء ، الصبي البدوي الذكي الذي ذهب الى كلية سند هرست الحربية ونمت فيه رغبة قوية في تحويـــل شعبه ليصبح مثـــل الانكليز . ان مصطفى ، الديناميكي البارع الذي يستشهد بتليران وسيزار بورجيا ، والذي يهـــوى اللعبة السياسية ولكنه يتعشق بـــلاده ويؤمن بضرورة وضعها في مستوى العصر ، انما هو صورة ناجحة كل النجاح (ومثالية قليلا) لنـــوع جديد من انواع الزعيم العربي .

وتدل الاوصاف التي يصور المؤلف بها العرب على سعة معرفته ووفرة ملاحظاته : فهـو يصور جماهير تهتف بحماس لخطـاب معـاد للامريكيين وتفسح الطريق بادب لتسمح للسفير الامريكي بالمرور؛ ويصف الحكومة:« كان الخبراء المتقدمون في السن خريجين من اكسفورد عموما ، اما الصغار فكانوا خريجين من هارفرد عادة ... ممن يلبسون البذلات والنظارات الامريكية ويحملون شنطات الاوراق الجلدية » ؛ ويقول عن مستشار مالي قديم : « كان رئيسا لحكومة الخضراء مدة عشرين سنة تقريبا ، خدم الملوك والفاتحين ، والمستعمرين وكارهي الاجانب ؛ قوّد للباب العالي وكان عميلا للبريطانيين ... يستطيـــع ان يدير اقتصاديات الخضراء الملخبطة بهارة لا يحلم اي خريج عربي من هارفرد بان يضاهيه فيها » .

واضح ان «مملكة الوهم» ليست رواية «جدية» عن الشرق الاوسط ، واني اشك في ان يوافق عرب كثيرون على الصورة التي يعكسها ادوارد شيهان لهم في مرآته . وهناك على الاقل عربي واحد اعرفه امتعض من تلاعب شيهان بالاسماء العربية (« وادي مافيش » ، مثلا) واعتبر الكتاب تافهـا . لكنني لا اجـد في « مملكة الوهم » اية اساءة – بفضل ما فيه من تسلية ومتعة يقدمهما للقارىء . وينبغي الا نسيء فهم عدم اتسامه بالجدية الواضحـة : فهو من صنـف ثانوي من الرواية الانكليزية ، صنف له معالمه الخاصة ، ويعـود في تاريخه الى سويفت ، ويختلط فيه المضحك مـع الجدي ، والطفولي مع البالغ ، بطريقة لا اظن ان لها شبيها في الادب العربي .

رواية دزموند ستيوارت الاخيرة « الفسيفساء الدائرية » (تشابمان وهول ، لندن ، ١٩٦٥) هي اول رواية له لا يكون العالم العربي موضوعها الرئيسي – اذ ان الكثير من احداثها يجري في انكلترا واسكتلندا وايرلندا . والشخصيـات العربية ، مع انها مصورة تصويرا جيدا ، قليلة . ولاول مرة ايضا يتخلى السيد ستيوارت عن المشهد المعاصر ويكتب عنه فترة اقدم ؛ وموضوعه عائلة اسكتلندية ، هي عائلة لوماكس ، تأتي للاقامة في مصر في ما بين سقوط الخرطوم والحرب العالمية الاولى . وعلى عكس معظم البريطانيين في روايات دزموند ستيوارت السابقة ، نجـد ان اندرو لوماكس استعماري « طيب » ، فهو مهندس يحلم بتعمير الصحراء ويضحي باستمرار بمستقبله (مما يحز في نفس زوجته) من اجل تحقيق هذا الحلم .

عصمت بك هو افضل صديق لعائلة لوماكس في مصر ، وهو ابن باشا تركي وام عربية . وهـو ثوري ووطني ، وقد تلقى دراساته في الخارج ؛ وقد فرضت عليه الاقامة الجبرية في الفيوم بسبب آرائه السياسية الخطرة . ويوم حادثة دنشوي يطرد اندرو لوماكس صهره من البيت لانه اهان عصمت . بعد ذاك ينخرط الصديقان واسرتاهما في مشروع تعمير قطعة من الصحراء الليبية . لكن عصمت سرعان ما يمل العزلة ويتولاه الحنين لمقاهي القاهرة .

بما ان « الفسيفساء الدائرة » هي الحلقة الاولى من ثلاثية ، يستحيل ان نعرف ما هو على التدقيق

تعليق السيد ستيوارت على الاستعمار . لكنه في هذه الرواية ، على عكس سابقاتها ، يبدو اكثر اهتماما بالجانب الاوربي منه بالجـــانب العربي . هناك مستعمر آخر ، هو اللورد لوشمويدارت، يقتل الفئران البيض بخنقها بقدميه الحافيتين ، وينغمس في تهتك وشذوذ فاضح . فكلا الجيد والرديء يصوران في الكتاب ، بما فيهما من تعقيدات وملابسات .

هذا حتما هو احسن الكتب الثلاثة التي اتولى مراجعتها في هذا المقال. وهو، من حيث الاسلوب، اثر فني رائع، مع ان القراء العرب قد لايستسيغون تركيب العبارات اللاتيني المكثف ، الذي يبدو احيانا كالمصطنع والمتكلف وان كان يأتي الكاتب بصورة طبيعية عفوية . والحوار مهضوم ولاذع ، والشخصيات مصورة بمهارة . ان « الفسيفساء الدائرية » عودة الكاتب الى اصوله . ويبدو ان في العودة اكتشافات مثمرة مثلما في الاقلاع .

موريل سبارك هي مؤلفة «العزّاب» و «تذكّر الموت » و « مقتبل الآنسة جين بريدي » ، وهي واحدة من اشهر خمسة او ستة مؤلفين في انكلترا ... السنوات الاخـيرة . و « بوابة مندلبوم » ... ماكميلان، لندن ، ١٩٦٥) هي اطول رواياتها ... كثرها تقليدية . وكأني بالناشر قد دعاها للغذاء ... قال لها : « اسمعي يا موريل ، يجب ان تكون ... روايتك الجديدة اطول من العادة ، حتى يشعر ... القراء انهم حصلوا ما على يستأهله ثمن الكتاب . ... ن الرواية اقل شطارة واقل تعقيدا . فان ... يكرهون ان يشعروا انك تسخرين منهم »! ... لم تكن روايات موريل سبارك السابقة ... كبيرة ؛ غير انها كانت شخصية واصيلة لحد كبير . ... فريدة من نوعها ، في انها جمعت بين خصائص ... : مداعبة للمواضيع الخطيرة (الموت ، ... ، التزوير ، الخ) ؛ واهتمام بالعزوبية ... الجنس، وخاصة بطريقة معالجة العازبات للجنس؛ ... شاعرية حساسة بما في الكلام العادي من ايقاع ... مفارقات ؛ وحب للشواذ والغرابات .

... « بوابة مندلبوم » تجربة « العثور ... » في بلد اجنبي (وهو ايضا موضوع « الطريق الى الهند ») . تجيء معلمة انكليزية كاثوليكية (نصف يهودية ، من جهة امها) الى الى فلسطين المحتلة لزيارة الاماكن المقدسة ولمحاولة رؤية حبيبها ، وهو عالم آثار يعمل بالحفريات في الاردن . وتصر على الذهاب الى الاردن ، بالرغم من جميع النصائح لهـــا بالا تفعل ذلـــك ، ويرافقها رجـل انكليزي من السفارة وفتـاة عربية اسمها سوزي . وهناك « ولاول مرة شعرت بوحدة في شخصيتها : يهودية امية ، كاثوليكية صميمة لا منتمية ، مغـــامرة خجولة » . ويختبر زميلها الانكليزي فريدي الشعور نفسه: « استعاد عنصرا مفقودا او منسيا في طبيعته واصبح الآن ، اخيرا ، ينهل من معين نمط غير معقول كانت هي (بربارة) تنهل منه ايضا».

اكتشاف الذات موضوع ممتع ، لكن موريل سبارك تسيء معالجته لانها تسمح لشغفها بالنواحي المثيرة بان تتغلب على اهتمامها بحجيج بربارة فون. وقبل ان ينتصف الكتاب تتحول «بوابة مندلبوم» الى قصة جاسوسية سخيفة ، يكون لبعض موظفي السفارة البريطانية فيها اتصالات مع « خلايا » ناصرية ، وبالتدريج يتذكر فريدي ، المصاب بفقدان الذاكرة بسبب ضربة شمس ، كيف كان يشاهد رسائل توضع في شجرة قرب البحر الميت . غير ان في قلب الكتاب فراغا ، لان الحج ، الذي هو العنصر الحاسم في القضية ، لا يؤدي الا الى تجربة ثانوية . فلم يتبدل شيء بالفعل . انه ليس الا فترة من اللاواقع بالنسبة الى بربارة وفريدي، مثلما هي معظم الرحلات السياحية عادة .

ما سيلاحظه القارىء العربي « لبوابة مندلبوم» بمجرد ان يبدأ بمطالعتها هو ضعف معرفة المؤلفة للحقائق العربية . فالفقرات التي تظهر من حين الى آخر لتكون الخلفية السيـاسية للرواية ساذجة الى اقصى حد – من النوع الذي لا ينجو من الملامة عليه الا النساء الجميلات جدا . والعرب الذين تتحدث عنهم هم عموما اولئك الذين يراهم السواح عادة: الشحاذون والاطفال الجياع وباعة الاغراض السياحية والادلاء السياحيون والمتسكعون . ان احد المشاهد (في فلسطين المحتلة) يعبر عن نظرتها الى الامور من زاوية سياحية : « صرخت امرأة من

الداخل ، ثم ولولت ، وخرجت اخيرا الى الساحة تنشج بصوت مرتفع . كانت فتاة عربية تلبس فستانا غربي النمط ، ضيقا وقصيرا ، مشعثا . وكانت امرأتان اخريان تسندانها . وكان فستانها ممزقا عند الكتفين . لا بد انها كانت قد تعرضت لمعاملة قاسية » . ان السائح لا يعرف ان المرأة العربية تمزق ثيابها عند وفاة امرىء عزيز عليها .

بل ان الآنسة سبارك تخطىء في امور بسيطة، كالاسماء : فهي تطلق اسم عبد الرمدز على احد اشخاص الرواية – وهو فتى منحرف جذاب– وهو واخته المتحررة سوزي هما الشخصيتان العربيتان الرئيسيتان ؛ وهما يديران وكالة سفر غريبة معقدة تتولى ايضا اعمال التجسس والتهريب بين الاردن واسرائيل ؛ ويقوم ابوهما جو ببعض اعمال التشهير على هامش عمله في وكالة السفر. ومع ان الآنسة سبارك لا تحبه (فهو ناصري) فانها تحب سوزي وعبد كثيرا ، وتتعمد ان تسمح لجاذبيتها ان تسيطر تقريبا على برباره وفريدي . لكن يبدو ان المؤلفة انما ابتدعتها لتبرهن على نظرية : هي ان العرب الطيبين الوحيدين هم العرب اللاعقائديون ،العرب المتسكعون،العرب المهربون، العرب الذين لهم اصدقاء يهود ويتخذون لهم عشاقا، العرب الذين يثورون على آبائهم وعلى القومية العربية وعلى الرئيس عبد الناصر ! فهناك خط عام من الشعور المعادي للجمهورية العربية المتحدة يخترق الكتاب كله ، ويبدو احيانا وكأنه نتيجة تعرض المؤلفة تعرضا شديدا للاحاديث التي تدور في حفلات كوكتيل نساء السفارة البريطانية. فالنظرة الدعاوية الشائعة ضد العرب ، بانهم «عدائيون» و «عاطفيون» ، تتردد في الكتاب ويتقبلها الكتاب من اوله لآخره .

هذا الكتاب في الواقع مثل على كيف يسهم سوء الفهم لمكان غريب ، في اقامة حس مزور بالهوية والشخصية . فشعور برباره فون بانكليزيتها في الاردن هو وهم مثلما هو المشهد نفسه . غير ان جمهور القراء البريطانيين سيحبون ذلك كله .

ان « بوابة مندلبوم » ، بشكل عام ، مثال بارز على « الاستعمار الثقافي » : على استغلال المؤلفة للمادة الغريبة بدون تفحص كافٍ وبدون اعتبار للحقيقة .

روزمري صايغ

ثلاث مسرحيّات

« الفتى الشجاع » ، بقلم نعيم عطية. مطبعة الجبلاوي ، القاهرة ، ١٩٦٥
« سيا اونطة » ، بقلم نعمان عاشور . سلسلة المسرحية ، القاهرة ، ١٩٦٥
« المحروسة » ، بقلم سعد الدين وهبه . الدار القومية ، القاهرة ، ١٩٦٥

الدكتور نعيم عطية واحد من القلائل الذين يساهمون في تنمية الحقل المسرحي في مصر ، بالدراسات النقدية والابحاث والمقدمات الضافية والمترجمات الامينة والبرامج الاذاعية الحافلة . وها نحن نراه يرغب الآن في منح الحقل المسرحي مزيدا من نفثات روحه ، فيعطيه قطعة من ذات نفسه تكون ايذانا لنا بان نناقشه بشأنها باعتباره مؤلفا لا ناقدا . يهدي المؤلف مسرحيته الى صديقه شوقي عبد الحكيم « الذي اختار الطريق الصعب ورفض ان يقلد» – اي انه بطريقة غير مباشرة يكشف لنا عن اتجاهه هو في هذه التجربة ، موحيا الينا انه اتخذ لنفسه اسلوبا متميزا خاصا به ، وانه هو الآخر اختار له طريقا صعبا ورفض ان يقلد. ولعله يقصد بالطريق الصعب صعوبة ان يكون لك اسلوب متفرد ذو سمات وملامح خاصة، ان تكون لك شخصية مستقلة . واذا كان المؤلف يحمد لصديقه اختياره الطريق الصعب ورفضه التقليد ، فاننا لا شك نحمد له هو ، نحن الآخرون ، هذا الاتجاه في حد ذاته: فهو اتجاه نحو تكوين شخصية، ربما تكون منطلقا نحو اكتشاف شخصية مسرحنا.